الفصل الثامن

أدوات التربية

انتظرت موعدي في اليوم التالي مع مراد وما أن رأيته حتى قلت له:

" لقد أصبح للحياة معنى ، وشكل آخر"

" هل تغيرت الحياة معك بسرعة، إن الصواب نتيجته سريعة ألا ترى ذلك"

"أريد المزيد، إن عقلي مفتوح لكل ما ستقوله، وقلبي أيضًا"

" بالطبع سنبدأ ، فقط بعدما تحكي لي ما حدث معك"

ومضيت أحكي له ما حدث ، والفرحة تشق طريقها على قسمات وجهه ، أحسست بفرحته لي بالفعل ، وكم أسعدني ذلك، كم هو رائع أن تجد إنسانًا يسعد لسعادتك ، ويبذل قصارى جهده ليجعلك أفضل، وهو في كل هذا لا ينتظر منك شيئًا يعود عليه بالنفع ، لقد كنت أظن أنهم غير موجودين في هذه الحياة التي تمتلئ عن آخرها بأشخاص تحركهم المادة ، يأسرهم الطمع ، يطبق عليهم الجشع بفكين من حديد .

وبعد ما حكيت له ما حدث بادرني قائلاً : "صف لي شعورك الآن"

"شعور من وُلِدَ من جديد ، شعور إنسان كان فاقدًا لأي معنى لحياته ، لكن هاهي حياته تعود له من جديد ، باختصار شعور لا أستطيع وصفه ، لكنه .. وتوقف الكلام في حلقي وامتلأت عيناي بالدموع ، وقمت أعانق ذلك الرجل وأشكره وأدعو الله له .

ربت مراد على كتفي وقال : "دعنا نكمل يا صديقي، سنتكلم عن مراحل التربية الثلاث والتي رأيناها مع صديقنا البستاني ، وهي كما فصلناها :

عطاء ثم تهذيب ثم مصاحبة ، وهي مستمرة مع الوالدين طوال فترة تربيتهم لأبنائهم لكنها تختلف من وقت لآخر ، وسوف أشرحها لك شرحًا وافيًا ، لكن قبل أن ندخل في تفصيل المراحل الثلاث سأعطيك بعض الأدوات المساعدة التي ستعينك أنت وزوجتك على تربية أبنائك بشكل جيد"

"هذا غير مراحل التربية"

" هذه الأدوات ستساعدك طوال فترة تربيتك لأبنائك "

" كم أداة ؟"، **خمس أدوات :**

- الاستعداد يوفر الكثير .
- الاجتماعات .
- الخطأ طريق النجاح .
- السلطة بيديك .
- الحب دون شرط .

- الاستعداد :

" الاستعداد ، هل تعرف شعار الكشافة " كن مستعدًا " إنه شعار رائع ، ولو طبقناه في حياتنا ، سيفيدنا كثيرًا ، وبالأخص هاهنا عندما نتحدث عن تربية الأبناء "

" إنني أدرك فائدته حتى في عملي، فكثيرًا ما ضاعت صفقات من شركتي بسبب عدم الاستعداد، ولكن لي سؤال لابد من طرحه، ما فائدة الاستعداد كأداة من أدوات تربية الابناء ؟"

" هل ذهب معك أحد أبنائك مكانًا وأساء التصرف ، مما جعلك تشعر بالإحراج لفقدانك السيطرة عليه ؟"

عندما أخبرني بذلك الأمر شعرت بكل كلماته حقًا فكثيرًا ما حدث لي ذلك، وأظنه يحدث معكم جميعًا ، فمن منا لم يحرجه ابنه ، أو ابنته ببكاء يوقظ الأموات أثناء تسوقه لأنه يريد لعبة سخيفة يفسدها بعد عودته للبيت بدقائق؟ .

" إنني أذكر تلك الأوقات بالفعل ، وكثيرًا ما كنت أشعر بالحرج فيها ، وقد حدث ذات مرة أن كنت ذاهبًا مع أسرتي لزيارة صديق من أصدقائي ، وأصر أحد أبنائي على المبيت عند صديقي للعب مع ابنه ، وبالطبع صارت مشكلة كبيرة لكي آخذه رغمًا عنه ، ولما أن عدت للبيت عاقبته عقابًا شديدًا"

" ولهذا عليك أن تستعد لكل هذه المواقف ، فقد كنت أتحدث مع أبنائي قبل ذهابي لمكان ما ، وأضع لهم قواعد السلوك والتعامل في ذلك المكان ... فإن كنا سنذهب لمتجر لشراء بعض الأغراض ، أتفق معهم على عدم اختيار ألعاب لأن وقتي أو أموالي لا تسمحان بذلك ، ولو كان عند أحد الأقارب فقد كنت آخذ عليهم عهودًا بدايةً

بطاعة الوالدين نهاية بعدم القيام بأي أفعال غير مرضية"

" وما مدى استجابتهم ؟"

" لو لم تكن الاستجابة رائعة ، هل كنت سأخبرك بها كأداة مفيدة جدًا في تربيتك لأبنائك ؟"

" أمر عجيب جدًا ، إنك تجعل الأمور تبدو كما لو كانت عادية وبسيطة ، بل ولو لم أكن قد واجهت تلك المشاكل لما رأيتها مشاكل بسبب حلولك السهلة"

"سهلة وبسيطة لكننا لا نفعلها ، لذا نعتقدها في غاية التعقيد أو مستحيلة ، لقد كانت ابنتي الصغيرة تذهب للمتجر لتعيث فيه فسادًا، وأركض أنا وراءها في كل مكان آخذ هذا من يدها ، وأعيد ذلك لمكانه ، وأشعر بالإحراج فأشتري لها من كثرة بكائها ، وعندها قلت لابد من حل، وبالفعل جئت ذات مرة وحدثتها وقلت لها إنَّ تصرفك في المتجر لا يرضيني ، بل ويجعلني أغضب ، فإن أردت أن تأتي معي مرة أخرى عليك بالتزام الهدوء ، اتفقنا ؟ واتفقنا بالفعل، ولما ذهبت معي للمتجر أوقفتها على الباب قبل الدخول وسألتها : حبيبتي أتذكرين اتفاقنا ؟ فأجابت : نعم لن آخذ شيئًا من مكانه ولن أعبث بشيء

وسأبقى بجانبك ، قبلتها وقلت أحسنتي ، وبالفعل حافظت ابنتي على عهدها بالفعل"

" وكم كان عمرها وقتها ؟"

" ثلاث سنوات"

" يا للعجب"

" ولكن لا تنس أنني قلت لها حبيبتي ، وقبلتها ، وقد كافئتها بعد عدة مرات ، لكي ترى نتيجة فعلها"

" إن الأمر يشبه التخطيط للعمل قبل البدء به"

" بالفعل ولكنه هاهنا تخطيط للحد من المشاكل، وكونك تستعد لهذه الأمور يعطيك ميزتين في غاية الأهمية .

الأولى : أنك تملك زمام الأمور ، والسلطة في يدك .

الثانية : أنك لن تجعل نفسك عرضة لتلك المصادفات السخيفة التي قد يوقعك فيها أبناؤك .

وتأتي وسط تلك الأمور نقطة غاية في الأهمية وقد تحدثنا عنها من قبل أنك تنمي روح تحمل المسئولية عند أبنائك"

جميلة تلك القاعدة وتكمن روعتها في أنها ستجعلنا نستمتع بالخروج مع أبنائنا ، ومن لا يريد ذلك ؟

مع سريان كلماته ومبادئه كالنسيم على قلبي وعقلي ، وإحساسي بأني أجلس في مكان لا يمت لعالمنا المادي .

قلت وأنا في حالة انتشاء وسعادة " والأداة الثالثة ؟"

- الاجتماعات :

" الاجتماعات ؟! ، لا تقل لي أن أجتمع مع أبنائي كما أجتمع مع المسئولين بالشركة ، إن أعصابي لن تحتمل"

" في الشركة ، الاجتماعات تتعلق بالأموال والجهد والعمل ، وأمور كثيرة تبعث على الإحباط ، لكن في البيت الأمر يختلف ، اجتماع البيت سيكون من شأنه لم شمل الأسرة ، ومتابعة العهود ومعرفة احتياجات الجميع ، وسيكون له جو من المرح والبهجة أيضًا"

" هل تعني اجتماع مع الأسرة بشكل دوري ، في موعد يعرفه الجميع ونناقش بعض الأمور ، وما إلى ذلك "

" بالطبع إن استطعت جعله كل أسبوعين فافعل ، ولا تبالغ بجعله كل أسبوع ، ففي زحام تلك الحياة سيكون أمرًا مجهدًا ، لن تستطيع المداومة عليه "

" وما طبيعة الأمور التي أناقشها معهم ؟"

" يشمل الاجتماع مع الأسرة كل شيء ، على سبيل المثال تناقشهم في شأن ترتيب المنزل أو القيام ببعض الأعمال ، أو مشكلة قامت بين اثنين منهم ، وبعد انتهاء الاجتماع ، تتفق معهم على القرارت التي سيتم تنفيذها ، وتوقيت التنفيذ وتجعل كل واحد منهم مسئولاً عما يخصه .

لكن هناك بعض النقاط الهامة التي يتعين عليك اتخاذها عند استخدام تلك الأداة لكي تجدي نفعًا "

" وما هي تلك النقاط ؟"

" **أولاً** : أن تسمح لهم بأن يبدوا آراءهم ، ولا تمنعهم من ذلك .

ثانيًا : ابدأ دائمًا اجتماعك بالثناء عليهم ومدح أفعالهم السليمة.

ثالثاً : بعد ترتيب الأولويات والأمور التي سيقوم بها أبناؤك أو أنت عليك أن تتابع ذلك ولا تتركه .

ودعني أعطيك مثالاً توضيحيًا :

لو أن أبناءك لا يقومون بأعمال البيت من مساعدة وترتيب وما إلى ذلك فماذا عساك أن تفعل ، وأن تستفيد من الاجتماع معهم .

" لقد تطرقت لنقطة هامة ، لقد تعبت زوجتي مع أبنائي في هذه النقطة ، وعبثًا حاولت الوصول معهم لحل ، فسيكون من المفيد أن نضرب مثالاً بهذا"

" ستبدأ اجتماعك كما قلنا بإظهار حبك لهم ، وهو أمر بالغ التأثير في قلوبهم ، ثم ستقول : هناك موضوع لابد أن نتحدث عنه ألا وهو " المسئولية الشخصية" والتي تقضي بأن يحافظ كل منا على أغراضه مرتبة ، وتحاول أن تذكر لهم بعض فوائد الترتيب والتنظيم ، وما يلاقيه الإنسان المرتب من فائدة في حياته ثم تبدأ في أخذ آرائهم

لحل تلك المشكلة .

" وماذا سيحدث بعدها ؟"

" أنت ستحكي لي بعدما تفعل مع أبنائك"

ابتسمت ووافقته وسيكون أمرًا ممتعًا .

- الخطأ طريق النجاح :

اتخذ وضعًا جادًا وقال " تلك الأداة التي تعوق تقدم أبنائنا في الحياة، بل وتفسد عليهم وعلينا متعة الاكتشاف ، والسعي نحو الأفضل"

قلت عاقدًا حاجبي ، وقد بلغت مني الدهشة مبلغًا " وما هي تلك الأداة التي تفعل كل هذا ؟"

"كراهية الخطأ، ومطالبة أبنائنا بألا يخطؤا ، والسعي الدائم لمنعهم من الخطأ"

أظنكم تتفقون معي على أن هذا الكلام غريب علينا ، وقد انعقد لساني عن الكلام عندما سمعت منه تلك العبارات ، ولولا معرفتي به

لاتهمته بما تتهونه به الآن .

" بالطبع أريد تفسيرًا لهذا الكلام ، فأي عاقل سيراه كلامًا عجيبًا"

" أخبرني ، ما رد فعلك عندما يخطئ أحد أبنائك ؟"

فقلت بكل بساطة " أغضب"

" ولماذا ؟"

"لأنني أبوهم ، لذا أريدهم ألا يخطؤا ، هل تحب أن يخطئ أبناءك ؟"

" بالطبع"

ألا ترون معي أنه قد تمادى ؟ ، ما هذا الطرح ؟ كيف يحب إنسان أن يخطئ أبناؤه ؟ . لكن دعونا نسمعه للنهاية .

" وكيف تحب أن يخطئ أبناؤك ؟"

" لكي يتعلموا من أخطائهم ، إن أخطاءنا هي أكبر معلم لنا يا صديقي ، بل وأكاد أجزم أنني لم أر إنسانً ناجحًا إلا وهو يضع

الخطأ على قائمة أفضل ما حدث له وعلمه ، فلولاه ما وصل لما وصل إليه من تقدم ونجاح .

أما خطأ الآباء والأمهات هذه الأيام فيكمن في أنهم لا يريدون لأبنائهم أن يخطؤا ولا يتحملوا فكرة خطأ أبنائهم ، لذلك يحدون كثيرًا من تقدم أبنائهم وظهور عبقريتهم "

" ما علاقة أنني لا أريد من ابني أن يخطئ في الحد من عبقريته ونجاحه ؟"

" لأنه يخاف رد فعلك عند الخطأ لذا لا يجرب"

لقد صار لكلامه معنى الآن ، أزال الغبار الذي كان يغطي كلماته الأولى ، إنني لا أسمح لأبنائي أن يخطؤا ولكن هل معناه أنني أحدُّ من تقدمهم .

أعادتني كلماته للوراء ، فكم حدث معي ذلك بالفعل وكثيرًا ما كان يوقفنا آباؤنا وأمهاتنا بسبب خوفهم من الخطأ ، الذي أورثنا نحن أيضًا خوفًا من الخطأ .

" بالفعل يا صديقي الخوف من الفشل أكبر معوق للنجاح ،

وقد كان آباؤنا وأمهاتنا يفعلون ذلك معنا ، وللأسف نحن نفعله مع أبنائنا "

" نحن نفعله بحسن نية ، كما كان يفعل آباؤنا معنا ، وذلك كله ظنًا منا أننا نحمي أبناءنا ، لكننا مع الأسف نزرع فيهم خوفًا من التجربة ، يقضي على الكثير من إمكانياتهم ومهاراتهم . إنني أذكر ذات مرة قمت بدراسةٍ ما وقد كان وقتها مضغوطًا ، ولم يكن عندنا الوقت الكافي للدراسة بشكل منتظم ، وقبل موعد الامتحان بأيام اعتذر أحد الأشخاص الذين كانوا يحضرون معي عن أداء الامتحان وطلب من المسئولين أن يقوم بالتأجيل لعام آخر ، فتعجبت وذهبت له وسألته لم فعل ذلك فأجابني " لأني لم أستعد جيدًا وأخاف من الرسوب" فقلت " إنني أظن أغلب الحاضرين مثلك ، وما الداعي للخوف من الفشل ؟ لن تخسر شيئًا فقط حاول واجتهد في الأيام القليلة القادمة"، لكن عبثًا حاولت إقناعه ومن ناحيتي أنا حاولت الاجتهاد قدر استطاعتي . فهل تعرف ما حدث ؟

" ماذا حدث ؟"

" يوم الامتحان أخبرنا المسئول أنه قد جمع لنا درجات للحضور

بنسبة ثلاثين بالمائة ، وما يحتاجه الدارس للنجاح سيكون نسبة بسيطة للنجاح ، ويالعجب فقد كان الشخص المنسحب هذا أكثرنا حضورًا ومداومة ، وقد نجح الجميع تقريبًا ، أرأيت خوفه من الفشل أين وصل به ؟"

ابتسمت وقلت " لقد ذكَّرتني بقصة قرأتها ، عن دكتور في الجامعة وقف أمام طلابه يوم الامتحات وقال لهم " الواثق من نجاحه في امتحان اليوم يرفع يده ، فرفع نسبة قليلة من الطلاب أيديهم ، والباقون منعهم خوفهم من الفشل أن يرفعوا أيديهم ، فنظر إليهم وقال لهم هل تريدون أن أعيد لكم الاختبار الأسبوع القادم ، فقالوا " نعم " ، فوافق ، والتفت للنسبة التي رفعت يديها واثقة في النجاح وقال : " أما أنتم فقد نجحتم في الامتحان ، فقط لثقتكم في أنفسكم " ولم يمتحنهم ، إنني كلما تذكرت هذه القصة ، أتخيل مدى خيبة أمل الباقين "

" لكنهم غير واثقين في أنفسهم ، وهذه هي النتيجة "

" وماذا عليّ أن أفعل كي أعدل ذلك السلوك ؟"

"أظنك قد أدركت مدى فائدة الخطأ الآن ، لذا دائمًا علم أبناءك ذلك وقل لهم دومًا الخطأ أكبر مساعد لكم على التقدم في الحياة .

ونقطة جوهرية لابد أن تعرفها . هناك فرق بين تقبل الخطأ ، والسعي له ، بمعنى أنني لا أقول أن تترك أبناءك حتى يخطؤا ، ولا تعاقبهم بدعوى كلامي هذا إنما أقول لا تجعلهم يخشون الخطأ"

"أظنني فهمت والتطبيق سيساعدني أكثر"

"والآن يا أكرم أظنني سأحدثك عن الأداة الأخيرة والتي أظنها أمتع الأدوات وأكثرها تأثيرًا ، بل وسيحبها أبناؤك"

"وما هي تلك الأداة ، لقد شوقتني لمعرفتها"

السلطة :

أردف مراد قائلاً : "من هو صاحب القرار في شركتك؟ أليس أنت؟"

"بالتأكيد، لكن هناك مشاورات تتم مع رؤساء الأقسام قبل اتخاذ أي قرار حاسم"

" لكن مرجع القرار لك بالتأكيد ، وهذا لأنك مركز الشركة، ومحل سلطتها ، وقد يحدث أن يخالفك بعض رؤساء الأقسام الرأي لكن لأنك ترى أفضل فإنك تتخذ القرار المناسب من وجهة نظرك"

" بالطبع فإن خبرتي في مجال الأعمال قد تعطيني نظرة مختلفة عن الآخرين ، وعندها أشرح له ما لا يراه وأقوم باتخاذ القرار"

" وهل هذا في مصلحة الشركة أم لا ؟ بمعنى أنَّ وجود رجل مسئول يأخذ القرار المناسب يفيد الشركة أم لا يفيدها ؟"

" بالطبع يفيدها ، فالقيادة هي أساس نجاح أي عمل"

" وهذا ما ينبغي علينا أن نوجده في بيتنا ، وهو أمر بالغ الأهمية يتجاهله معظم الآباء والأمهات"

عقدت حاجبيّ مفكرًا وسألته : " وما هو هذا الأمر ؟"

" السلطة"

رددت خلفه متعجبًا : " السلطة ؟!"

" نعم السلطة ، إن ما يحتاجه الآباء والأمهات في هذه الأيام هو

أن يحكموا فرض سيطرتهم داخل البيت"

قاطعته قائلاً "إن السلطة في البيت لنا أنا وزوجتي ، ولا أفهم مغزى ما تقول"

"متى كانت آخر مرة اتخذت فيها قرارًا يسري على كل من في البيت بمن فيهم أبناؤك ؟ متى كانت آخر مرة أجبرتهم على فعل شيء لا يريدونه ؟"

عندها فهمت مقصده ، وأيقنت أنني واحد من هؤلاء – فاقدي السلطة داخل بيوتهم – وقد تجلت أمام ذهني صورة الموقف الذي كنت أجلس فيه مع أبنائي وأحاول إقناعهم للقيام برحلة لأريح فيه أعصابي ، وأتذكر كيف رفض الجميع تقريبًا .

"إنني واحد من هؤلاء بالفعل ، والكثيرون من حولنا هكذا، فكيف يفرض الأب والأم سيطرتهما على البيت ؟ ، وهل هذا أسلوب تربوي مناسب ؟ ألا يتعين علينا أن نعطيهم حرية اتخاذ قراراتهم بأنفسهم ، لكي ندعم ثقتهم بأنفسهم ، أليس هذا هو ما يقول علماء التربية ؟"

ابتسم مراد ابتسامته الودود وقال : " لقد كانت التربية قديمًا أمرًا سهلاً يقوم به الأب والأم وسط أعباء الحياة ولا يجدان مشقة كبيرة ، وإن صادفا مشكلة ما مع أبنائهما يذهبا ليسألا والدًا أو أمًا أو جدًا عمًا أو صديقًا يملك الخبرة .

أما الآن وقد أصبحت التربية علمًا ، يتكلم فيه الناس بمصطلحات كبيرة وصار الحديث عن مشاكل الأبناء يحتل المكانة الأولى في أولى المشكلات التي تهدد استقرار الأسرة ، فإنك تجد الناس اتخذوا اتجاهًا جديدًا ، ألا وهو ... إرضاء الأبناء على الدوام وإسباغ ذلك بصبغة من ذلك الكلام العلمي على غرار ما قلته منذ قليل .

وإنني لأتعجب من ذلك الأسلوب الذي يحكم عليّ باتباع ابني فيما يأمر به وأن أمنع نفسي من أجله ، وهو بعد طفل صغير أو مراهق مشوش التفكير أو حتى شاب قليل الخبرة"

"هل تعني أنَّ ذلك لا يزرع الثقة في نفس الأطفال بالفعل؟"

" إنه يزرع فيهم شيئًا واحدًا ، الأنـانـيـة"

" الأنانية ؟!"

" بالطبع وماذا تنتظر من شخص تعطيه الصلاحية ليتحكم في حياتك وهو لم يحصل على الخبرة الكافية بعد "

" إنك تحكي حالي مع أبنائي بالضبط ، إنَّ ذلك الشعور كان يرادوني كثيرًا وكنت أتساءل من منا صاحب القرار داخل البيت، لكني كنت أعتقد في أن ما أفعله صحيح ، ومع تقدمهم في العمر سيتفهمون تضحيتي من أجلهم "

" وهل رأيت ذلك على الأقل من ابنك رامي صاحب الثمانية عشر عامًا ؟"

ضحكت ضحكة ساخرة " وماذا ترى أنت ؟"

" إنني أرى أنه لابد لك من إعادة وضع سلطتك أنت وأمهم في الوضع المناسب "

"إنني أقتنع بكلامك كعادتي عندما تهدم لي نظرية كنت أعيش بها منذ سنين، يا إلهي، إن الآباء والأمهات بحاجة ليتعلموا من جديد كيف يتعاملوا داخل بيوتهم وأنا على رأسهم، هيا هات ما عندك "

"عزيزي، إنَّ ترسيخ المبادئ داخل البيت أمر في غاية الأهمية،

والإنسان منا لا يعيش حياة صالحة بدون مبادئ راسخة ، ومن المبادئ التي على الأب أن يرسخها "أنا وأمكما أصحاب القرار ، وقد نستشيركما" ذلك المبدأ يعطي صلاحية للأب والأم في الإمساك بعجلة القيادة طوال الوقت ، ولا يسمح للأولاد بإمساك عجلة القيادة إلا في مواضع معينة، وتحت إشراف الأب والأم .

هل تجادلت يومًا مع أبنائك في أمر ما يريدون تنفيذه على عكس رغبتك أو رغبة أمهم ، وأصروا على رأيهم – علمًا بأنك تدرك خطأ رأيهم – ونفذ لهم ما يريدون فقط نزولاً على رغبتهم ، وضد ما تقتنع به ؟"

"كثيرًا جدًا"

"أتعرف ماذا أفعل أنا مع أبنائي وقتها ؟"

"كلا"

"لا أوافق على ما يريدون، وأبدأ في شرح وجهة نظري، ثم...."

قاطعته قائلاً " ثم عبثًا تحاول إقناعهم لقد قمت بهذا كثيرًا"

بابتسامة أجابني "هنا لابد لك من استخدام السلطة كما تحدثت معك آنفًا ، بمعنى أنه لابد أن تفرض عليهم ما تراه صحيحًا"

"ولا يؤثر على شخصياتهم هذا الأسلوب"

"بالعكس ، يؤثر وهذا ما نريده أن يتعلموا أن الأب والأم لهما السلطة ، وأنه لابد من الرضوخ والسماع لصوت العقل ، إننا نجهزهم لحياة مجهدة يا عزيزي وسوف يقابلون الكثير من المصاعب في حياتهم لذا علينا أن نعلمهم أن الحياة لا تسير دائما كما يريدون"

"وهل أفعل هذا دومًا معهم ؟"

"الهدف من فعل هذا أن يدركوا مَنْ صاحب القرار في البيت، لذا لا تفعله على الدوام ، بل افعله فقط عندما لا يكون هناك استعداد للتقبل بالعقل والمنطق ، على سبيل المثال إن لم يرضخ أحد أبنائك لكلامك في أمر ما ، ناقشه وحاول إقناعه فإن لم يقتنع نفذ كلامك أنت وأخبره أن الأمر لك وأنك المتصرف هاهنا"

"السلطة بيد الآباء ، مبدأ مؤثر ، بل ومن شأنه أن يعيد زمام الأمور لكل أب وأم فقط لو فهموا"

كان نظر مراد متركزًا عند نقطةٍ ما على الجدار ، فاقتربت لأرى ما يرى ، وفي اعتقادي أنه صيد ثمين ، ومثل سيضربه لي ، فما أروع أمثلته، بل وما أجمل تلك الطريقة التي يستفيد بها عقله من كل ما حوله .

لكن ما إن رأيت ما يرى حتى عقدت حاجبي ، فقد كان هناك عنكبوتًا صغيرًا يهم بالانقضاض على ذبابة أوقعها شرك خيوطه .

فقلت له " هيا أخبرني بما لا أراه في هذا المشهد ، فقد اعتدت منك ذلك"

"المشهد أكبر دليل على أن للحياة قواعد لابد للجميع أن يحترمها ، فما ذنب هذه الذبابة كي تؤكل هكذا ؟ لكن الأمر أكبر من الجميع والسلطة تفرض علينا ما نكره لكنه في النهاية يعود بالفضل على الجميع"

هنأته على تمثيله الرائع بإيماءة من وجهي ، وقلت " إنَّ الحياة أكبر منا جميعًا وهذا ما ينبغي عليّ أن أعلمه أبنائي ، لكي يصبر عند المكروه"

"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ارض بما قسم الله تكن أغنى الناس" وهذه قاعدة للحياة السعيدة"

- الحب دون شرط :

"الحب دون شرط يا عزيزي، أفضل أداة تثري بها تربيتك، وللأسف هي أكثر ما نفتقده في حياتنا ، فمن منا يحب أبناءه بلا شرط ؟"

مضيت أسمع كلامه مذهولاً ، وما أن توقف حتى اندفعت قائلاً : "وهل نحب أبناءنا بشروط ؟"

" هل تحب أبناءك عندما يخطؤون ؟ ، هل تحبهم عندما يسيئون التصرف ؟ هل تحبهم عندما يقومون بإحراجك في مكان ما ؟ ، أفهمت قصدي الآن ؟"

" لكننا مع كل أخطائهم لا نكرههم"

" ومن الذي تكلم عن الكراهية ، إنني أقول أننا نحبهم بشروطنا، ويزيد حبنا لهم كلما أحسنوا التصرف وكلما أطاعونا ، وهذا يدفعهم دفعًا للتمرد علينا"

"يدفعهم للتمرد علينا؟ ، غريب هذا الأمر ، إننا نريدهم أن يحسنوا تصرفهم وكلما أحسن التصرف كلما أحببته"

" إن الأمر ينطوي على تقطة خفية ألا وهي ، أننا نحن الأبناء نريدهم أن يحسنوا تصرفهم ، ويطيعوا أوامرنا لكي نفتخر بتربيتنا لهم ، وعندما يصلهم ذلك الشعور يبدأ الأبناء في الإحساس بعدم أهميتهم"

" مازال كلامك غامضًا"

" إن الأبناء يريدون حبك عل كل حال ، لا لتفتخر بحسن تربيتك لهم ، يريد أن يرسل رسالة لك مفاداها – إنني هام على كل الأحوال – حتى حين خطأي"

" أتعلم ؟ إنه أمر هام بالفعل ، فلو لم يفتح لنا ربنا باب التوبة ويخبرنا أنه يحب ذلك، ما كنا سنقبل على التوبة والعودة إليه"

" إنك حكيم بضربك هذا المثل، وهو أكبر دليل على كلامنا"

" إذن عليّ أنا أمنح أبنائي حبًا بلا شرط ، ولكن قد أعاقبهم أيضًا ، فهذا لا ينافي الحب ، أليس كذلك"

" بالطبع "

- الدعاء :

" الدعاء ، ما أروع ذلك أن تعيدنا لخالقنا وبارئنا، أن نعتمد عليه بالفعل "

" الله - سبحانه وتعالى- يقول: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾.

والله يحب العبد اللحوح في الدعاء ، فادع الله دائمًا أن يعينك على تربية أبنائك وأن يجعلهم صالحين "

فكم فتح الدعاء من أبواب ، وكم أغدق ربك على الناس من كثرة دعائهم ، وقد كان أصحاب النبي يسألون ربهم عن كل شيء ، فلماذا لا نقتدي بهم فنسأل ربنا أن يعيننا على تربية أبنائنا ؟ .

إن طلب العون من الله لهو أعظم ما يساعد الأبوان في تربية أبنائهم، ومما يجعل البركة تحل ، لتبارك خطواتهما .

فادع ربك كل يوم أن يعينك على تربية أبنائك "

وأنهى حديثه عن الأدوات المساعدة لنبدأ معًا رحلتنا عبر مراحل التربية . لكن الوقت قد حان لرحيله ، وقد حددنا موعد لقائنا بعد يومين ، وتمنى لي التوفيق وانصرف .

التطبيق الثاني

ما إن عدت لبيتي وأنا أعيد كلامه في ذهني وأحاول استيعابه ، وأدعو الله عز وجل ، وأكرر وأطلب عون الله ومساعدته .

وقد كان الاختبار الأول في انتظاري ، حيث عدت إلى البيت فوجدت مشاجرة بين زوجتي وابني أحمد الذي حول غرفته لملعب كرة يمارس فيها هواية اللعب بالكرة ، وقد قام بكسر أحد الطاولات .

لو كنت فيما مضى لمضيت له وعنفته ، ولعنت الكرة ولاعبيها ، ومضيت إلى غرفتي ، لكن الوضع مختلف الآن كما وأنكم تعلمون ، لذا انظروا ما فعلت أيها الأعزاء .

وقفت أمام أحمد صامتًا أركز نظري عليه ، وسألته : "ماذا حدث؟"

فأجاب " لقد كسرت الطاولة بالكرة"

"هل هذا ما يغضب أمك ؟ أم أن هناك شيئًا آخر ؟"

" نعم"

"وهل أردت أن تغضبها ؟ ، أم أنك لم تقصد ؟"

" لم أقصد"

" إذن فأنت معترف بخطئك"

" نعم"

"اذهب واعتذر لأمك، وحاول الاستفادة من خطئك ، ولا تلعب بالكرة في غرفتك مرة أخرى"

اندهش الولد جدًا من سلوكي ، وهو الذي توقع مني موجة من الصياح في وجهه لكن هدوئي قد أصابه بالذهول .

وأقول لكم بكل صدق ، إن الهدوء هذا الذي تحليت به قد أفادني كثيرًا ، فلم أشعر بضغط نفسي أو ما شابه مما كنت أشعر به سابقًا ، بل على العكس تمامًا شعرت أنني واثق من نفسي جدًا .

وما إن جلست مع زوجتي حتى تفاجأت بها تقول لي :

"كيف أمكنك التحكم في نفسك هكذا؟ إن تغييرك يبهرني"

" إنَّ هدفنا أن نجعله يحسن تصرفه ، لا ان نعاقبه ، وقد أخطأ

ودورنا أن نساعده على التعلم من خطئه ، فالخطأ طريق النجاح"

" الخطأ طريق النجاح ..... لقد صرت حكيمًا هادئ البال"

وانتهى الموقف كما رأيتم دون ضجيج أو ثورة صاخبة .

وجاء اليوم التالي سريعًا ، وقمت بطقسي الصباحي الذي يقضي بأن أقبل كل واحد من أبنائي قبل ذهابي للعمل ، ومارست عملي بكل نشاط واجتهاد ، وعدت بعدها لبيتي ، وطاقتي لم تنفد بعد ، وأيقنت بالفعل أن الخطأ خطؤنا نحن ، عندما ننفق طاقتنا في الدخول في مشاكل لا طائل من ورائها في العمل أو في الشارع أو في أي مكان.

بعد عودتي أخبرت الجميع بأن هناك اجتماع للأسرة بعد العشاء، وقد تواجد الجميع وهو يتبادلون نظرات من تلك التي تظهر على عينيك عندما ترى مجنونًا فتشفق عليه ، لكني لم أعر تلك النظرات انتباهًا ومضيت أبدأ الاجتماع .

ذكرت لهم جميعًا أنني أحبهم ، وأنني أريد أن أبقى دومًا على اتصال بهم ، لذلك فكرت في فكرة عقد اجتماع للأسرة لكي نتناقش في كل ما يخص البيت ، حصلت على موافقتهم بالطبع فالأمر ليس سيئًا على أية حال كما أنه أمر جديد يستحق التجربة .

وقد طلبت منهم أن يعرضوا أفكارهم عليّ في كيفية عقد الاجتماع وتوقيته والأمور التي يريدون التحدث فيها ، ويالعجب لقد تفاعل الجميع وأظهروا روحًا رائعة .

نسيت أن أخبركم أنني وضعت قواعد للنقاش – أداة الاستعداد- أن يحترم كل واحد المتكلم وألا يتكلم حتى ينتهي الأول من حديثه ، وأن ينصت الجميع للمتحدث دون مقاطعة ، ولا أخفيكم سرًا أن الأمر كان أشبه بإدارة معركة حربية لكنه انتهى بشكل جيد .

كان رامي أكثر المتحدثين حيث شكك في كل ما أفعله وأقوم به وقال أنه لا فائدة منه من وجهة نظره .

تمالكت أعصابي أن أصرخ في وجهه طالبًا منه أن يعطيني دليلاً على فائدته هو شخصيًا ، لكني تذكرت وجه ملهمي وكأنه يقول لي : "إن له تفكيره الخاص حتى لو كان قاصرًا ، واجبك أن توضح له ، لا أن تنهره"

فقلت : "إذن رامي من رأيه أن ما ننوي فعله من اجتماعات للم شملنا ، أمر لا فائدة منه ، فماذا عن الباقين ؟"

هدى : "له فائدة في حالة سماع كلامنا"

رامي ساخرًا : "كلامنا ؟! ، منذ متى وأحد يسمعنا ؟ الموضوع كله (بروباجندا) قالها هكذا بالإنجليزية ، ومعناها كما ولابد أنكم تعلمون دعاية ، ولا أعلم هل يظن أنني جمعتهم لدخول الانتخابات ، ألم أقل لكم أنه يحتاج صفعة على وجهه تفيقه من تلك الأوهام التي يحيط بها عقله .

" كلا بالطبع يا رامي إنني في محاولة لبدء طريقة جديدة معكم، أسلوب مختلف يكفل لنا حياة سعيدة"

وتجرأت وسألتهم السؤال الذي أخاف من سماع إجابته .

"هل تحبون هذا البيت ؟ ، هل تحبونني أنا وأمكم ؟"

خيم صمت ثقيل على المكان ودارت الأعين بيننا وبينهم ، وكادت الأرض أن تميد بي وبزوجتي ، لولا أن قالوا :

"نحبكم لكننا لا نحب أسلوبكما معنا ، لذا لا نحب هذا البيت، لتسلطكم"

قلت : "وماذا لو اعتذرنا لكم عن أسلوبنا السابق ، أنا وأمكما سنتعاهد معكما على التغيير وستساعدوننا على إحداث ذلك داخل البيت"

أحمد : "بصراحة يا أبي طريقتك تغيرت بالفعل ، وأنا موافق على هذا التغيير لو استمر أسلوبك هكذا ، وأمي بالطبع"

هدى : "وأنا متعجبة من أسلوبك الجديد ، أشعر أنك رجل آخر ، لكنني أحب أن تكون هكذا"

رامي : "لا أعلم ، لكن لا بأس من التجربة"

قلت للجميع : "إذن هيا نتعاهد أمام ربنا أن نحاول العيش بسعادة ورحمة ، فقد قال ربنا ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ لذا دعونا نستفيد من الوضع الذي منَّ الله به علينا"

وافق الجميع على البداية الجديدة ، وامتدت أيدينا للعهد بالفعل ، وكم كان موقفًا مؤثرًا .

لم أشأ أن أجعل الأمر يزيد أكثر من هذا لذا قمنا وأنهينا ذلك الاجتماع ، فالغرض منه في وجهة نظري هو وضع حجر الأساس ، وقد

كان .

ومر اليومان بهدوء نسبي ، لكن موقفًا حدث مع ابنتي الصغيرة جعلني أعرف فائدة أداة التربية المتمثلة في أن السلطة بيدي أنا وزوجتي.

طلبت ريم مني أن أسمح لها بالذهاب معي لشراء بعض الأغراض المنزلية لكني أجلستها أمامي وقلت لها : " موافق ، ولكن بشرط أن تسيري بجانبي وأن لا تطلبي مني شراء شيء لك ، اتفقنا ؟"

وقفت مفكرة ثم قالت : اتفقنا "

وبالفعل أخذتها معي وقبل دخول المتجر أعدت عليها اتفاقنا ، فأكدت تذكرها ومنذ دخلنا وهي لا تفارقني ولا تفعل كما كانت تفعل قبل ذلك .

ألا ترون أي تلميذ نجيب أنا .

وبعد عودتنا أثنيت عليها وعلى تصرفها أمام الجميع، فقد نالت إعجاب أمها التي لم تصدق ما حدث .

سألتني زوجتي : " وكيف جعلتها تسير معك بكل هدوء كما تقول ؟ ، الأمر أشبه بالمعجزة"

نفخت أوداجي فخرًا وقلت : " لقد اتفقت معها قبل ذهابنا وأخذت منها عهدًا ، وكانت على مستوى المسئولية"

"وهل تعرف تلك الصغيرة قيمة العهود والمحافظة عليها ؟"

" بالطبع ، إننا نضيع الكثير من أوقاتنا، بل ونهدر صحتنا في انتظار مواقفهم المفاجئة التي لا نكون على استعداد لها ، لذلك كل ما فعلته أن استعددت لما سوف تفعله ، ومنعته بالطريقة التي أخبرتك بها"

" إنني كلما تعلمت منك تلك الأساليب ، أيقنت اننا لم نكن آباء من قبل"

ووافقتها بإيماءة من رأسي ، ودعوت لملهمي ، وقلت لها :

" أتعرفين أين كنا ؟"

" أين ؟"

"في دوامة التطلع لحياة مزدهرة ، دوامة الوصول للأفضل ، دوامة الحصول على كل شيء . ما إن يبدأ الواحد حياته إلا وتهاجمه أفكار الوصول لكل شيء ونيل كل الدرجات ، واقتناء الأموال ، وذلك لحياة أفضل ، ولكنها في النهاية دوامة ، يستمر المرء في الدوران فيها ولا يصل لنهايتها أبدًا ، فليس لها نهاية ، ثم تأتي لحظة الرحيل للآخرة ، ويدرك عندها أي غافل كان .

فالأموال والدرجات لا تعطي سعادة ، وإنما هي سبيل للحياة فقط"

ظلت زوجتي تتطلع لي مذهولة من كلامي ، وقد بدا تأثرها الشديد بكلامي ثم قالت : " أترانا سننجح في التغيير ، وهل سيستجيب لنا أبناؤنا ؟"

" سننجح بفضل الله"

المراحل لثلاث لتربية الأبناء

اعتدل أحمد في مجلسه معي وكأنه يوحي لي بأهمية ما سيأتي وقال :

" هل تعرف أن رعاية الأبناء لها مراحل مختلفة كمراحل رعاية الأزهار التي رأيناها مع البستاني لو تتذكر"

"ليس بالضبط ، وإن كنت تقصد تلك المراحل التي يمر بها الإنسان من طفولة ومراهقة وشباب وما إلى ذلك فكلنا نعرف ذلك"

"كلنا نعرف ذلك لكننا لا نحسن التعامل مع تلك المراحل . والفرق كبير بين أن تعرف فقط وأن تحسن التعامل مع الأبناء فيها، وأنا سألخصها لك كما قال الإمام علي "لاعب ابنك سبعًا ، وأدبه سبعًا ، وصاحبه سبعًا ، ثم اترك له الأمر بعد ذلك"

" لاعبه ، أدبه ، صاحبه .... ولكن ما علاقة ذلك بما فعله البستاني ؟"

"البستاني فعل ذلك أيضًا بشكل أكثر توضيحًا ، وإن كان بشكل آخر .

بدايةً ، ري الأزهار وهي مرحلة عطاء فقط وهذا بالفعل ما يستوجب علينا فعله مع أبنائنا الصغار حتى سبع سنوات ولا يكون العطاء مفيدًا في هذا العمر إلا أن يكون على شكل لعب ، لذا كان الأمر بالملاعبة هو البداية ، ثم تهذيب الأزهار وهذه مرحلة التأديب وهي من السابعة حتى الرابعة عشرة ، وأخيرًا ، تقبل الاختلاف والتباين والرضا عن ذلك وهي مرحلة المصاحبة من الرابعة عشرة حتى الواحدة والعشرين. وعندها يصل أبناؤنا لمرحلة من فهم الحياة تعطيهم صلاحية الانطلاق دون عناء أو مشقة أو متابعة منا"

"إسقاط وتمثيل رائع، هل رأيت كل هذا فيما فعله البستاني؟ من أين لك تلك المقدرة العجيبة على ربط الأمور ؟"

" التفكر ... وقد مدح الله عز وجل المتفكرين في مخلوقاته قائلاً ﴿ الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ .

تلك المراحل الثلاث ستجدها مستمرة معك في تربيتك لأبنائك طوال الوقت حتى مع اختلاف أعمارهم فالصغير لابد له من عطاء وتهذيب وتقبل ، والكبير أيضًا وكما قلنا أن أفضل ما يكون في التربية من أسلوب هو أسلوب السبع سنوات ، ففي كل مرحلة من تلك المراحل لابد من العطاء والتهذيب والمصاحبة ولكن بنسب مختلفة"

" وكيف ذلك ؟"

" في المرحلة الأولى – السبع الأولى – سيزيد العطاء بالتأكيد ، لأن الطفل يحتاج أن يعرف كل شيء تلك الحياة التي أتى إليها ، ولا سبيل لمعرفته إلا عن طريق أبيه وأمه ، وفيها يقل التهذيب والمصاحبة ، ويختلف الأمر في السبع سنوات الثانية التي يبدأ معها الابن الدخول في مرحلة المراهقة فيزيد فيها التهذيب ويقل العطاء والمصاحبة ، ثم مرحلة الشباب فتزيد فيها المصاحبة ويقل العطاء والتهذيب ، وسوف أتناولها معك جميعًا بالشرح والتفصيل"

" كلي آذان مصغية"

من قصيدة " كن أبًا ولا تتنح جانبًا"

لاعبــه في سبــع طفـلاً لا تأمــره ولا تـنــهـاه

إن شئــت تعلمــه خـُلقًا افعـلْــه دومًا ليـــراه

امنح لقبًا واحك قصصًا وسـع أفقًا وادع اللـــه